تمثلات الهوية في الشعر الجزائري القديم
"المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس أنموذجا"

Représentations de l'identité dans l'ancienne poésie algérienne " élu de la poésie du modèle Abi Abdullah bin Khamis"

الباحثة: نزيهة درار

إشراف: د. سمية حطري

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب-عين تموشنت(الجزائر)

imene-13@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/01/22 تاريخ المراجعة:2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص باللغة العربية:

تتناول هذه المداخلة صورة الوطن في الشعر الجزائري القديم "المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس كنموذج للدراسة،وتهدف إلى إبراز جماليات الموروث الشعري القديم، وخصوصا ديوان ابن خميس لنفض الغبار عليه. ويعد شاعر تلمسان الأكبر نموذج حي للشاعر الوفي لوطنه، حيث بلغ الذروة في شعر الحنين والاغتراب.

فوقفت على كل ما يتعلق بتلمسان من قريب أو من بعيد، وعن كل ما يبرز هوية الشاعر، فكانت بلدته مثيرة للمدح، الوصف والحنين،ودلت النتائج على إلتزام شاعرنا بوطنه، وإخلاصه له بالرغم من بعده عنه.

الكلمات المفتاحية: صورة شعرية ; الشعر ; الشعر الجزائري ; ابن خميس ; تلمسان

ABSTRACT :

This entrance is about the image of country in old qlgeriqn poetry .the sophesticqted selectir from poetry of abi abdellah ibn khamis as a sampte for studying.

And the main purpose ist i shoz the beauty of our old poetry especally the plate of ibn khamis to clear dust from it.

And the potry oft Tlemcen is considered tob e the greatest and a living sample for loyalty for home sweet home it reachty the summit of tendancy and nostalgio.

I stood up on every thing in relation with home was a priviledge for descriptin and tendancy all lead to one thing ist hat our potry is loyal desprit being away.

Keywords: the Poetry image; Algerian Poetry; ibn khamis; Tlemcen

نص المقال

تمهيد:

عشق الشاعر العربي البيئة التي عاش فيها، فكان أول هم الشعراء أن يرفع من شأن أرضه ويدافع عنها فكان لسان حالها الناطق وبمثابة المدافع عنها، ولا نبالغ إذا قلنا عن كل ما يتعلق بمدينته.

فلم يخرج الشعراء الجزائريين عن طاعة الشعراء القدامى المشارقة لكن طرأ عليه تعديل طفيف، لكنه لم يتعدى "الحنين والحب والدفاع عن الأرض"[1]

1- مدح تلمسان وكل مايتعلق بها:

أبدع الشعراء الزيانيون في ابتكار المعاني والصور الشعرية، فجاءت المدائح ذات نغمة واحدة فالممدوح أي المدينة أولا والسلطان الزياني ثانيا.

أ-مدح ملوك بنو زيان:

يقول الشاعر:

لولا بنو زيان ما لذلي ال *** عيش ولا هانت علي الليال

هم خوفوا الدهر، وهوخففوا *** علي بني الدهر خطاه التقال

لقيت من عامرهم سيدا *** غمر رداء الحمد جم النوال

وكعبة للجود منصوبة *** يسعى إليها الناس من كل حال[2]

تظهر صورة بنو زيان في هذه الأبيات ككعبة منصوبة للجود يسعى إليها الناس من كل فج عميق وهذه كناية عن صفة الكرم والجود والعطاء فلولا بنو زيان مل لذ لشاعرنا العيش فهم خففوا عليه الدهر وخففوا على أهل بيئته خطاهم الثقال، فسلاطين بنو زيان أحق بهذا المنصب والثناء.

فهو فخور بهذا القول وبنفسه ،يقول

خذها أبازيان من شاعر *** مستملح النزعة عذب المقال

يلتفظ الألفاظ لفظ النوى *** وينظم الآلاء مثل اللئال

مجاريا مهيار في قوله *** ما كنت لولا طمعي في اخيال[31]

في قوله: * فكيف لايفتخر بنفسه وبألفاظه وعذوبة مقاله فهو مجاريا مهيار

عتقها في الدن خمارها *** والبكر لا تعرف غير الحجال[4]

ظهرت تلمسان في صورة العروس وهي في موكب الزفاف وهنا نجد علاقة تربط بين العروس والحجال فتلمسان عروس الغرب والحجال هي القبة التي زينت بالثياب والستور وبكر الغرب معروفة بالسترة.

ج- مدح المدينة كاملة

تعلق الشعراء منذ القديم بمناطق معينة، فكان من ذلك قصائد شعرية مطولة تسيل منها أغراض شعرية تتمثل في المدح والرثاء والوصف بالإضافة إلى شعر الطبيعة هذا الغرض الدخيل على الشعر العربي عامة والشعر الجزائري خاصة، يحمل بين أطرافه عواطف صادقة ينبع منها الحب والإعجاب" فالطبيعة مصدر إلهام للشعراء، يأوون إليها مستلهمين وحي الشعر".[5]

فمدينة تلمسان من أجمل الأماكن في الغرب الجزائري، الملفتة للنظر بشلالاتها وأبوابها، وأنهارها وأوديتها إضافة إلى قرية العباد.

يقول ابن خميس متغزلا بمدينة تلمسان التي كان لها أثر في نفسيته وخاصة بعد مكوثه في الأندلس واتصاله بشعرائها فأنهل من بحرهم فلا نبالغ إذا حكمنا عليه بلقب جنان تلمسان، وهذا اللقب ليس له علاقة بابن خفاجة، لأنه لم يصل إلى ماوصل إليه جنان الأندلس، يقول:

تلمسان جادتك السحاب الدووالح *** وأرست بواديك الرياح اللواقح

وسح على ساحات باب جيادها *** ملث يصافي تربها ويصافح[6]

يتوسل الشاعر لبلدته، بصورة بيانية استعارية وكأنه يشبه المطر بانسان وهويصافح، لينتقل إلى باب الجياد وهو من أبواب تلمسان المشهورة وفيها يقول الثغري في قصيدة رفعها للسطان أبو حمو مطلعها:

أيها الحافظون عهد الوداد *** جددوا أنسنا بباب الجيادا[7]

فأغلب صوره كان يأخذها من الطبيعة ليجسدها وكأنها إنسان يحمل بين أطرافه أنباء عن بلدته تلمسان، يقول:

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء *** فعند صباها من تلمسان أنباء

وإني لأصبوا للصبا كلما سرت *** وللنجم مهما كان للنجم إسراء[8]

فهو يعرب عن الريح ويشتاق لنسيم الصباح أيام الصبا كلما راحت، فيشخص لنا الريح في هيئة إنسان يرفع لنا أنباء عن تلمسان.

وفي صورة أخرى تجمع بين الشوك والإبر، يمثل لنا حالة فراشه، يقول:

واستجلب النوم الغرار ومضجعي *** قتاد كما شاءت نواها وسلاء

لعل خيالا من ليدها يمر بي *** ففي مره من جوى الشوق إبراء[9]

يصف لنا الشاعر حالته وهو بعيد عن بلدته مشبها فراشه بشجرة القتاد الصلبة التي تشبه الإبر.

تسلل ابن خميس في وقت متأخر من الليل –أثناء الحصار المريني على تلمسان-متوجها نحو مدينة سبتة المغربية، بعد وقوعه في ورطة كادت أن تنهي حياته، فتحركت فيه نفسه النزعة الإنسانية بعد ما شاهد من مجاعة وفقر، فدعا العائلة الملكية إلى مايرمي من صلاحها[10]

لكن محاولته باءت بالفشل وانقلبت الأمور ضده،فلم يستطع الملك حمايته، وفي ذلك

يقول :

ولولا سخائم قوم أبوا *** إبائي ركبت إليك الرياحا

أباحوا حماي وكم مرة *** حميت حمى عرضهم أن يباحا[11]

فكم من مرة دافع عنهم بشعره، لكن جزاءه كان الجلاء، يقول:

ودافعت عنهم بشعري انتصارا *** فكان الجزاء جلائي المتاحا[12]

والمبايعة الرخيسة التي تلقاها الشاعر من بنو زيان، فجاء العدو لقتله، وفي ذلك يعبر:

أباعوا ودادي بخسا فسل *** أكان سماحهم بي رباحا

وأغروا بنفسي طلابها *** سرارا فجاءوا لقتلي صراحا[13]

وحاول الخصوم إغراءه، بأنه ليس هو المقصود، وحلفوا يمينا على ذلك بأن ما توهم به مجرد مزاح، لكن ابن خميس لم يشعر بالأمان اتجاههم فشاور نفسه، فرأت له الصواب وقرر الفرار ، يقول:

وألوا يمينا على أن ما *** توهمت لم يك إلا مزاحا

فشاورت نفسي في ذا فما *** رأت لي بغير الفلاة الفلاحا[14]

فتوجه نحو سبتة في الليل، فبات وحده يناجي نجوم الدجى، يجوب الدياجير ن ولا مؤانس له سوى القطط والسراحا، وما يسمع سوى ضباح الثعالب التي تحس بمروره، يقول:

فبت أناغي نجوم الدجى *** نجاء فلم ألق إلا نجاحا

أجوب الدياجير وحدي ولا *** مؤانس إلا القطا والسراحا

وإلا الثعالب تحتس في *** مبيتي فتملأ سمعي ضباحا[15]

ويصادف في طريقه قبائل بدو أرادوا أن يقطعوا طريقه، يقول:

وجواب بدو إذا استنبحوا *** أجابوا عواء وأموا النباحا

يرون قتالي في الحجر حلا *** وإذهاب نفسي فيه مباحا

قصدت سناهم فلم أحطهم ***أعاجم شوس العيون قباحا[16]

فيتساءل كيف خلص من أسراهم؟ أسيرا أم سراجا، يقول:

فسل كيف كان خلاصي من *** أسراهم؟أسرى أم سراجا[17]

وفي الأخير نجا منهم بأعجوبة، ثم يواصل سيره ليلتقي بقبيلة أخرى كراما أعاريب شم الأنوف فصيحين، مشبه بناتهم بالأبقار في كبر العيون وسوادها، يقول:

ولامثل بيت تيممته *** فلفم ألق إلا الغنا والسماحا

وإلا أعاريب شم الأنوف *** كرام الجدود فصاحا الفصاحا

وإلا يعافير سود العيون *** يرين فساد المحب صلاحا

وأبدى لعيني بدائع *** لم يدع لي عقلا بها حين راحا[18]

يبدو أن شاعرنا قد وقع في حب إحداهن، فسلبت منه عقله وعيته حين راحا.

وفي صورة أخرى يشبه النجوم وهي تغيب كأنها إبل، وكأن شاعرنا قد تعب وعان من مشقة السفر الطويل لدرجة مزجه بين الصجراء والسماء في قضية النجوم والإبل، وقد عبر عن ذلك بقوله:

كأن النجوم وقد غربت *** نواهل ماء صدرن قماحا

لواعب باتت تجد السرى *** فأدركها الصبح روحى طلاحا[19]

قصارى القول، ارتبط الوصف بالطبيعة فوجود الوصف بوجود الطبيعة، والبيئة الزيانية غنية بالظواهر الطبيعية الخلابة المساعدة على تطور هذا الفن، فمعظم الأوصاف التي رأيناها كانت صور نقلية عبرت عن كل ماشاهده الشاعر الزياني من مدن ومنتزهات ومباني .

يسير ابن خميس إلى الجرح الذي أصيب بلدته، والمحنة التي تسببت في خراب مدينة، فيصور لنا الحصار المريني الطويل الذي دام أكثر من عشرة سنين على تلمسان، فراح يسرد

شدة البلاء التي ألمت بها، ويصور لنا الحالة التي أصبحت فيها دولته، يقول:

لعشرة أعوام عليها تجرمت *** إذا مامضى قيظ بها جاء إهراء

يطنب فيها عائثون وخرب *** ويرحل عنها قانطون وتناء[20]

فانقضى الشاعر عشرة أعوام على تلمسان، عايش شدة الحر والبرد وشدة القتال، فسرعان ماصارت خرابا وفسادا، فصور الرماح في صورة الحديدة التي تشعل نارا، والأموال في صورة الشاب العاقل الطائع، يقول:

كأن رماح الناهبين لملكها *** قداح وأموال المنازل أبداء[21]

فصارت خرابا، فصور لنا الجماد باكيا ، بعدما كانت شمسا ونسخت ظلالا، يقول:

فلا تبغين فيها مناخا لراكب *** فقد قلصت منها ظلا وأفياء[22]

فاشتد عليه المرض وطال، فهل يطول عمري وأعيش لحظة فك الحصار؟، يقول:

ومن عجب أن طال سقم*** ونزعها وقسم أضناء علينا وأطناء
فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى*** ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء[23]

يتحسر الشاعر على مدينته التي راحت ضحية الحرب والهلاك، فهل يأتي ذلك اليوم للموعود الذي تنقضي فيه أيام البؤس وتعود تلمسان كما كانت من قبل وضياء النور على وجوه البشر، يقول:

وهل للمظى الحرب التي فيك تلتظي *** إذا ما انقضت أيام بؤسك إطناء

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة *** إليك ووجه البشر أزهر وضاء[24]

ويندب على الحرب التي هلكت المدينة، يقول:

فوا حربا لي إن هلكت ولم أقل*** لصب خيرها الغر الكرام إلا هاؤا[25]

فلم يمر وقت طويل وتحققت أمنية ابن خميس وانفك الحصار بعد قتل يوسف بن يعقوب على يد خادمه" وكان من الإتفاق الغريب، سرعة وقوع ما تمناه"ابن خميس" لتلمسان هذه من الخير، بعد طول المحنة واشتداد البلاء، ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير أربعة أشهر"[26]، فصحيح كما قيل بعد الصبر يأتي الفرج، فنال شاعرنا ماابتغاه وعاد السلام والأمن لتلمسان، فقد نقل لنا صورة صادقة تنعدم فيها الرحمة ، فهو عاش هذه التجربة وكان شاهدا على دمارها.

وفي صورة أخرة يبكي الشاعر وينوح على تركه لتلمسان، وهو يدرف دموع القراح، يقول:

ينوح علي وأبكي له *** وأقطع ليلي بكا ونياحا[27]

ويفضل الشاعر مدينة تلمسان على بغداد وجهتها الشرقية، فسخى به الزمان وساعده على تحقيق مناه، وصورها في قصيدته الغربية في صورة المملكة العظمى التي ليس لها مثيل، يقول:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو*** منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ[28]

فكلمة الوطن تشتمل على الديار والأهل والمنازل والتربة والبرق والرعد والماء والأنهار، فالشاعر الزياني الجزائري كان سباقا في شعر الغربة والإغتراب، فحن إلى تلمسان وكل ما يتعلق بهذا المكان من قريب ومن بعيد.

وفي صورة حنينية رائعة معبرة عن شوق ابن خميس لبلدته وهو في الأندلس، مستعملا الطيور والرياح في عباراته على سبيل الإستعارة المكنية، يقول:.

يطير فؤادي كلما لاح لامع *** وينهل دمعي كلما ناح صادح

ففي كل شفر من جفوني مائح *** وفي كل شطر من فؤادي قادح[29]

استعان الشاعر بالطيور لنقل مشاعره وأحاسيسه لتلمسان، فكلما هبت الرياح طار معه الشوق، وينهل دمعه كلما رأى طيرا، ففي كل جفن دمع مالح قارح يبكي غربة وحنينا على تلمسان، وفي نفس المعنى يقول:

أطار فؤادي برق ألاحا***فما (هز) بعد لو كر نجاحا

كأن تألقه في الدجا***حسام جبان في الكفاحا

أضاء وللعين إغفاءة***تلذ إذا ماسنا الفجر لاحا[30]

يصور لنا فؤاده في صورة الطائر المكسور الجناح المغلوب على أمره تارة وتارة أخرى في صورة الجندي المكافح صاحب الحسام الصقيل لكن ليس له حل سوى الإستسلام.

فهو يسأل الريح عن أخبار مدينته، فلعلها حاملة أنباء من الغرب الجزائري، ففي خفقان البرق إشارة إليها، يقول:

سل الريح إن لم تسعد السفن***فعند صباها من تلمسان أنباء

ففي خفقان البرق منها إشارة***إليك بما تتمنى أليك وإيماء[31]

فقد جسد الريح وشخصه في صورة الإنسان وهذه سمة فنية لافتة.

فيهدي إليها كل يوم تحية فعسى أن تتجاوب معه في رد التحية، ويفترض أن خيالا من طيفها يمر به، فهو يراها في كل مكان، فتلمسان بعيدة عن عيناه لكنها قريبة من قلبه، فهو كثير الأشتياق لها، يقول:

وأهدي إليها كل يوم تحية*** وفي رد إهداء التحية إهداء

وكيف خلوص الطيف منها وطونها***عيون لها في كل طالمة راء

وإني لمشتاق إليها ومنبئ*** ببعض اشتياقي لو تمكن إنباء[32]

فكم حلبت عشاقا وكم فتنوا بحبها وغرامها لدرجة الموت من أجلها، يقول:

وكم قاتل تفنى غراما بحبها*** وقد أخلقت منها ملاء وأملاء[33]

فهي صورة مشرفة تبهر العين بلباسها وحلتها.

فتمر الليالي وهو ينتظر سماع أخبارها، ففي كل ليلة يحن لها، حيث تستهويه تلمسان، فصور لنا بلدته وكأنها نجم في السماء يستهوي كل واحد فينا، يقول:

تمر الليالي ليلة بعد ليله*** وللأذن إصغاء وللعين إكلاء

وإني لأصبو للصبا كلما سرت***وللنجم مهما كان للنجم إصباء[34]

ففي قلبه نارا تشعل جوانحه ودمع يكتسح عيناه، فلا طيف يصبره على شوقهولا نجم جانح من الغرب الجزائري، يقول:

فما الماء إلا ما تسح مدامعي*** وما النار إلا ما تجن الجوانح

خليلي لا طيف لعلوة طارق*** بليل ولا وجه لصبحي لائح

نظرت فلا نور من الصبح ظاهر*** لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح[35]

وكأنه يستعمل الطير الجانح للتعبير عن أشواقه وناره المكبوتة في داخله.

فالقرح والدمع يلهب نار ضلوعه حنين وشوقا لبلدته، يقول:

أتى تستفيض دموعي امتياحا***ويلهب نار ظلوعي اقتراحا[36]

فكفى خصاما وسامحيني، لقد تعبت من كتمان حبك، فدمعي قد فضحني، هذه هي كلمات الحب التي صرح بها ابن خميس لمحبوبته تلمسان، يقول:

بحكقكما كفا الملام وسامحا*** فما الخل كل الخل إلا المسامح

ولا تعذلاني واعذراني فقلما***يرد عناني عن علية ناصح

كتمت هواها ثم برح بي الأسى*** وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح[37]

ويقصد به صيغة المثنى هنا: تلمسان وأبو حمو موسى الملك.

فطوحوا بابن خميس في تلمسان، فلم يكن على علم بكل ما حدث له فألم الفراق طغى عليه وطال عنه الحال، يقول:

وطوح بي عن تلمسان ما***ظننت فراقي لها أن يتاحا[38]

يحن شاعرنا إلى تلمسان إذا هبت ريحا ويبكي عليا فهو يموت عطشا لشدة الشوق، ويشرب شوقا لدرجة الامتلاء لأنه بعد عنها مكرها ومرغوما ، يقول:

أحن إليك إذا سفت ريحا***وأبكي عليك إذا ذقت راحا

وأفنى التياحا إليك وكم***أشحت بوجهي عنك انتشاحا[39]

فلم يبخل شوقا عن تلمسان وهوفي الغربة

فلم يلف دجن انتحابي شحيحا ***ولم يلق زند اشتياقي شحاحا[40]

فكم من ليلة وكم من عشية وكم من يوم غدا وراح يتأرجح حبا وتدللا على ضفاف ساقية الرومي ذات المنظر الجميل والماء الصافي، يقول:

لساقية الرومي عندي مزية *** وإن رغمت تلك الروابي الرواشح

فكم لي عليها من غدو وروحة***تساعدني فيها المنى والمنائح[41]

وهو سارح في بساتينها وعينه جامحة على ميادينها الخلابة، تهفو كل أفكاره وهو يستعمل الطيور ليترجم عواطفه، يقول:

فطرفي على تلك البساتين سارح*** وطرفي على تلك الميادين جامح

تحاربها الأذهان وهي ثواقب*** وتهفو بها الأفكار وهي رواجح

ظباء مغانيها عواط عواطف***وطير مجانيهاشواد صوادح[42]

فيرسل الشاعر كل يوم تحية إلى قرية العباد، تفوح مسكا، وصورة ابن شعيب كالتاج تزيد من جمال القرية، فالقلوب متضامنة معكن وكأنها بجوارك لكن الجسوم بعيدة عنك تتذوق ألم الفراق، يقول:

على قرية العباد مني تحية***كما فاح من مسك اللطيمة فائح

وجاد ثرى اعرفين ديمة***تغض بها تلك الربى والأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا***نوازع لكن الجسوم نوازح[43]

وفي صورة أخرى يشكره على ما قدمه لتلمسان وأهلها، يقول:

سعيت فما قصرت عن نيل غاية***فسعيك مشكور وتجرك رابح[44]

فإن نسي شاعرنا لا ينسى وقوفه على الوريط وهو يشم رائحة زكية تنبع من روضه الخلاب، المطل على الغدير الصافي وكأنه صفيحة من بعيد، يقولك

وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة***أنافح فيها روضه وأناوح

مطلا على ذاك الغدير وقد بدت***لإنسان غيني من صفاه صفائح[45]

ويتساءل قائلا: أماؤك أم غني؟ وكأنه لا يصدق ما تراع عيناه من شدة صفاء الغدسر وهو سكران طافح بحب بلدته سائحا بين بساتينها سايح في عيابها وكأنه يخاطب هذه الأماكن الصامتة التي بدت لنا في صورة الريم، فهو يصور لنا محادثة شيقة بينه وبين محبوبته، فيظهر في صورة العاشق الولهان هايما بامرأته الوحيدة في الغرب الجزائري ولما لا في القطر الجزائري،.

ويشعر بقرحة في قلبه زخرفت شوقا غائما وهو شاهق عليها سافح الدمعة، يقول:

أماؤك أم عيني؟ عشية صدقت***عليه فينا ما يقول المكاشح

لئن كنت ملآيا بدمعي طافحا***فإني سكران بحبك طافح

وإن كان مهري في تلاعك سائحا***ذاك غزالي في عبابك سايح

قراح غدا ينصب من فوق شاهق***بمثل حلاه تستحث القرائح[46]

فعن شوقه كاتم وعن دمعه سافح، فهو معتكفا صائما عن النساء، ضيق الصدر بائع لرشاده كثير الحسد، فهو عاشق لتلمسان، يقول:

أما وهوى من لا أسميه إنني***لعرضي كما قال النصيح لناصح

أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي***يقال فلان ضيق الصدر بائح

أي مقال ليس فيه حاسد***وأي مقال ليس لي فيه قادح[47]

إن المتأمل في هذه النصوص الشعرية يلحظ تفوق عنصر الماء على شاعرنا، وعلاقة الدال بالمدلول عزفت على قيتارة طبيعية حنينية، أنغامها أنهارا وشلالات ومياه تظرب السامع بألحانها وتريح القلوب بصفائها.

ننتقل مع الشاعر من ضواحي تلمسان لندخل إلى وسط المدينة وهو سوق القيسارية اليوم، الذي تركه لا عن تهاون بل مرغوم عن نفسه، فراح يتذكر كيف كان يمشي بين أرجائه وقلبه سائح فيه سارح، طامع في ولاءه ينتظر إشارة منه وهمة فيه، فمتى تنقضي ديوني لأعود إلى بلدي، فقد وجهت اعتذاري لهم، يقول:

تركت سوق البز لا عن تهاون***وكيف وظبيي سائح فيك سارح

وإني وقلبي في ولائك طامع***وناظر وهمي في سماطك طامح

أيأهل ودي والمشير مؤمن*** أتقي ديوني ام غريمي فالح

وهل ذلك الظبي النصاحي للذي*** يقطع من قلبي بعينه ناصح

كنيت بها عن عناء وحشمة***ووجه اعتذاري في القضية واضح[48]

وكيف ينسى شاعرها أيامه التي كن فيها واقفا لاهيا في أحد معالمها-معاهد الأنس- التي خربت ودمرت أيام المرينيين والتي لطخت فيها ألواحنا ، وهو سكرانامن الوجد غير مشغول إلا بحبها شبه اشتايقه بورق الرند الذي يتخد من شجرة العفار، يقول:

معاهد أنس عطلت فكأنها***ظواهر ألفاظ تعمدها النسخ

وأربع آلاف عفا بعضءايها***كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ

فمن يك سكرانا من الوجدمرة***فإني-طول الدهر-منه الملتخ

أم أبطح الصفصاف سال بماءه** فجرت بحق في الحمى أنهاره

أأنسى وقوفي لاهيا في عراصها***ولا شاغل إلا التودع، السبخ[49]

وهو يتخيل نفسه يمشي في أرجائها رخيا مشبه نفسه بطائر الرخ، وعو يعدوا ويبعد مثل ولد الظبي رافعا رجلا ويمشي على الأخرى ومشيها قيامه كما ينهض الفرخ.

وهو في مقتبل العمر وفي فترة الشباب كأنه أردشير بن بابك لا يمتلك سوى الشباب، يقول:

وإلا فاختيالي ماشيا في سماطها***رخيا كما يمشي بطرنه الرخ

وإلا فعدوي مثل ما ينفر الطلا***وليدا وحجلى مثل ما ينهض الفرخ

كأني فيها أردشير بن بابك***ولا ملك إلا الشبيبة والشرخ[50]

ويتذكر الشاعر عهده وهو في مقتبل العمر في تلمسان المحروسة ، حيث النقاء والصفقاء والطهارة فلا يوجد دنس ولا أجين الماء، يقول:

وعهدي بها والعمر في عنفوانه***وماء شبابي لا أجين ولا مطخ[51]

إلى أن يقول متغنيا بليالي الأنس التي قضاها في بلدته:

قرارة تهيام ومغنى صبابة***ومعهد أنس لا يلذ به لطخ

ليالي لا أصغي إلى عذل عاذل***كأن وقوع العذل في أدنى صخ[52]

فمازال يتشوق لمنزله الأول بتلمسان، ويصبر نفسه على فاجعته، فيتساءل قائلا: هل أنسلى بلدتي بعدما يمر بي العمر؟، يقول:

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى***ترى هل لعمر الانس بعدك إنساء[53]

متذكرا الدير الذي لطالما طاف حوله وطرق بابه وكلابه تهر من شدةالبرد ، وعساسه قد نام ويهوم به البئيس، يقول:

ولم أطرق الدير الذي كنت طارقا***بليل وبدرا الأفق أسلغ مسناء

أطيف به حتى تهر كلابه***وقد نان عساس وهو سناء[54]

وينادي الشاعر داره بدرب حلاوة في صورة المريض الذي يستغيث يالأطباء طابا النجدة من هذا البلاء، فلا لشرابي لذة ولا لطعامي طيبة، فأنا مريض بحبك، يقول:

فما لشرابي في سواك مزازة*** ولا لطعامي دون بابك إمراء

وياداري الأولى بدرب حلاوة***وقد جدعيث في بلاها ورداء[55]

فهو يحن إليها مثلما تحن الناقة المسنة لأبنائها، يقول:

أحن لها ما أطت النيب حولها***وما عاقها من مورد الماء ظماء[56]

ثم يسير بنا إلى الحي الذي كان يسكنه، وهو يتذكر أيامه بها التي حيلت وانمحت جراء الإغتصاب على أيدي الناهبين، يقول:

وداري بها الأولى التي حيل دونها***منار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ[57]

فبذكر الديار كأنه يرمز إلى الأهل والأقارب فهو يتصور طفولته فيها وكيف كانت عامرة بناسها، يسودها السلم والأمان، ويغمرها الحب والإحترام، فمدينة تلمسان معروفة بكرمها وحسنها.

ثم يحن الشاعر إلى تلك الأيام التي مضت بسرعة ، أيام الصبا والشباب والمال والترف ، فهو يتشوق لسماع صوت الأقلام على القرطاس، متشوق لسماع حركة الكعاب، متشوق للعب معهم ومداعبتهم، فهم نعم الأصدقاء، يقول:

مضوا ومضى ذاك الزمان وأنسه***ومر الصبا والمال والأهل والبذخ

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بها***صرير ولم يسمع لأكعبهم جنخ

ولم يك في أدواحها من ثنائهم***شميم ولا في القضب من لينه ملخ

ولا في محيا الشمس من هديهم سنا***ولا في جبين البدر من طيبهم ضمخ[58]

وكأن كل هذه القصص لم تحدث فمضت وانمحت وبقيت سوى الذكريات، ذكريات الأصدقاء الطبيين، شمس الهداية وطيبة البدر، زملاء الدين والأدب والخصال الرفيعة.

ومن أصدقائه إلى إخوانه في صورة جآدر الرمل في جمالها وحسنها واشتداد القوام، عن كل فحشاء ودنس ومنكر بعيدين، شان هداية وكرم، منصبهم في العلا، يقول:

وإخوان صدق من لداتي كأنهم***جآذر رمل ولا عجاف ولا بزخ

وعاة لما يلقى إليهم من الهدى*** وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ

هم القوم كل القوم سيان في العلا***شبابهم الفرغان والشيخة السلخ[59]

خاتمة

قصارى القول، يمكن أن نعرج على أهم النقاط:

1- وفاء الشاعر الجزائري القديم لوطنه.
2- تنوع صور تلمسان في كل مدونة.
3- استطاع ابن خميس أن يعبر عن بيئته، فحن إليها وهو بعيد، ومدحها وهو قريب.
4- عبر عن ما عاشته المدن الجزائرية القديمة بصور واقعية، كان لها أثر في نفسية المتلقي.

هوامش البحث:

[1] -السعيد حامد شوارب، المدح في الشعر الجاهلي "رؤية جديدة"، دار الكتب، القاهرة، ط2، 2008، ص18

[2] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1365، ص (115،116)

[3] - المصدر نفسه، ص 116

[4] - المصدر السابق، ص114

[55] - عوض علي الغباري، شعر الطبيعة في الأدب المصري "القرن الرابع هجري"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 2006، المقدمة

[6] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس، مطبعة بن خلدون، تلمسان، 1365ص 85

[7] -أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض،ج2، طبعه وحققه وعلق عليع: مصطفى السقا،ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، ص329

[8] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، ص 62

[9] - المصدر نفسه، ص ن

[10] -ينظر: طاهر التوات، ابن خميس شاعر تلمسان الأكبر، دار الأوطان، الجزائر، ط1، 2011،ص (124-125)

[11] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، ص 90

[12] - المصدر نفسه، ص 90

[13] عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ،ص (90-91)

[14] - المصدر نفسه، ص 91

[15] - المصدر السابق، ص ن

[16] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، ص ن

[17] - المصدر نفسه، ص ص89

[18] - المصدر السابق، ص 92

[19] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص89

[20] - المصدر نفسه، ص 63

[21] - المصدر السابق ، ص 63

[22] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص ن

[23] - المصدر انفسه، ص64

[24]- المصدر السابق ، ص64

[25] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص ن

[26] - أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، ص336

[27] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب لنفيس من شعر أبي عيد الله بن خميس، ص90

[28] - المصدر نفسه، ص96

[29] - المصدر السابق، ص85

[30] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص89

[31] - المصدر نفسه، ص 62

[32] - المصدر السابق، ص 63

[33] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس،ص ن

[34] -المصدر نفسه، ص 62

[35] - المصدر السابق، ص85

[36] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص89

[37] - المصدر نفسه، ص 85

[38] - المصدر السابق، ص 93

[39] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص 90

[40] - المصدر نفسه، ص ن

[41] - المصدر السابق، ص 86

[42] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب لنفيس من شعر أبي عيد الله بن خميس، ص86

[43] - المصدر نفسه، ص ن

[44] - المصدر السابق، ص ن

[45] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب لنفيس من شعر أبي عيد الله بن خميس، ص87

[46] - المصدر نفسه، ص ن

[47] - المصدر السابق، ص ن

[48] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب لنفيس من شعر أبي عيد الله بن خميس، ص88

[49] - المصدر نفسه، ص 96

[50] - المصدر السابق، ص97

[51] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب لنفيس من شعر أبي عيد الله بن خميس ، ص96

[52] - المصدر نفسه، ص ن

[53] - المصدر السابق، ص64

[54] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص ن

[55] - المصدر نفسه، ص 65

[56] - المصدر السابق، ص ن

[57] - عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ، ص 96

[58] - المصدر نفسه، ص 98

[59] - المصدر السابق، ص ن